الطريقة الأرثوذكسيّة الحقيقيّة الوحيدة لمواجهة البِدَع التي تُهدّد إيماننا

الأرشمندريت نيكن من الجبل المقدّس

نحتفلُ اليوم بتذكار المجمع المسكونيّ الأوّل للآباء الـ 318 القدّيسين. انعقد المجمع عام 325 لمحاربة هرطقة آريوس الذي قال إنَّ المسيح ليس الله بل خليقة الله. علينا دائمًا أن نتمثّل بالقدّيسين، بحسب ما يحثُّنا عليه بولس الرسول: "كونوا متمثّلين بي كما أنا أيضًا بالمسيح" (1 كورنثوس 11: 1). وفي نهاية المطاف، كلُّ ما نقوم به يعود إلى الربِّ نفسه.

وكيف نتمثَّل بالقدّيسين؟ نفعل ما فعلوه. سندافع عن إيماننا عندما يستلزم الأمر ذلك، تمامًا كما دافعوا هم عنه. ولكن علينا توخّي الحذر، لأنّنا في كثيرٍ من الأحيان، ندافعُ عن الإيمان بطريقةٍ خاطئةٍ ولا تكون النتيجة في النهاية كما نشتهي. لقد أعطانا الآباء القدّيسون نموذجًا وعلينا الاقتداء بأعمالهم وحياتهم. نحن نتحمّسُ لكوننا أرثوذكسيّين، ونسارعُ إلى محاربة كلّ ما هو هرطوقيّ أو فيه ضلال. المشكلة أنَّه كثيرًا ما لا يكون الموضوع بدعة، وكثيرًا ما لا يكون ضلالة، ولكنَّنا نظنُّه كذلك. يقول القدّيس باسيليوس الكبير في كتابه "القوانين المطوَّلة" إنَّه حتّى ولو كنّا متأكّدين من أنَّ موضوعًا ما هو هرطقة، يجب ألّا نهاجم الهرطوقيّ. انتبهوا إلى ذلك. حتّى الهرطقة بحدّ ذاتها يجب أن ننتقدها بحذرٍ شديد، ولكن لا ننتقدَنَّ الهراطقة. لماذا؟ لأنّ القدّيس باسيليوس نفسه يقول إنَّكم قد تظنّون أنّها هرطقة، وأنّ الشخص الآخر هرطوقيّ، لكنّ الحال قد لا تكون كذلك. يقول القدّيس باسيليوس إنَّ المجمع المقدَّس هو مَن يقرّر في شؤونٍ كهذه، وليس الأفراد.

إذاً، أينبغي لنا ألّا نعترض عندما نرى أمرًا خاطئًا وغير صحيح، إلى أن ينعقد مجمع؟ بالطبع علينا أن نعترض.

سنحتجُّ على الخطأ وعلى ما هو غير صحيح، وسنوضحُ ماهيّة الخطأ وما هو غير صحيح باستخدام كلّ الوسائل والحجج المتاحة لنا. ولكنْ، لا نحتجُّ على الشخص المخطئ، ولا على الشخص الّذي نظنُّ أنّه لا يقول الصَّواب. نقول إنّه ينبغي لنا أن نُحبّ. انتبهوا، المحبّة لا تعني دائمًا أن نصمت. انتبهوا، تتوجّه المحبّة إلى الأشخاص لا إلى أفكارهم أو فلسفاتهم. أمّا أفكارهم وفلسفاتهم الخاطئة، فإنّنا نُصحّحها، ونقوم بكلّ ما

في وسعنا لكي يفهم الناس أنّها خاطئة. هذه الأفكار والفلسفات هي ما سنقوم بمهاجمته -وأقول ذلك مجازيًّا- وأمّا الشخص الّذي تكلّم بما هو خاطئٌ فلا نُهاجمه، بل نهاجم ما قاله.

وله شخصيًّا، سنُصلّي أكثر، سنُصلّي مسبحةً إضافيّة، وسنقوم بسجدةٍ إضافيّة لكي ينيره الإله الصالح ويخلّصه. والله يعرف كيف يخاطبُ كلَّ واحد. نحن نندفع، وفي نهاية الأمر، تصبح الطريقة التي ندافع فيها عن إيماننا مثيرةً للسُّخرية. وبدلاً من أن يكون إيماننا مهدّدًا من قِبَل مَن نعتقد أنّه يقول أشياء خاطئة، يصير مهدّدًا منّا نحن، لأنّنا نجعل الإيمان مثيرًا للسُّخرية بالطريقة التي ندافع بها عنه. والأمثلة على ذلك كثيرة.

قال أحدهم: "ولكنَّ القديس نيقولاوس صفعَ آريوس في المجمع المسكونيّ الأوّل". انتبهوا، هذا تقليدٌ تقويٌّ جدًّا، هو ليس تقليدًا تاريخيًّا، ولكنّه صحيحٌ من ناحية أنّه يجب علينا الدفاع عن إيماننا. وهذا التقليدُ محفوظٌ بحقٍّ. ولكن إذا ما أردنا أن نفعل المثل، فعلينا أوّلًا أن نصير قدّيسين مثل القدّيس نيقولاوس، ومن ثمَّ نضرب الهراطقة. فبسبب الأهواء الّتي تُعمينا والجهل الّذي نحن فيه، إذا ما بدأنا بضربِ الناس الواحد تلو الآخر، فلن يبقى أحدٌ لم يتلقَّ صفعة. في الواقع، نحن صارمون تجاه الآخرين، لكنَّنا متساهلون للغاية مع أنفسنا. فلنُصبحْ قدّيسين أوّلًا، ثمَّ نفعل ما فعله القدّيس.

يقولون لي إنَّ القديس أنطونيوس الكبير أيضًا قد شاركَ في الاحتجاجات في مصر ضدّ الهراطقة. لا اعتراضَ على ذلك. صيروا أوّلًا كالقدّيس أنطونيوس، ثمَّ افعلوا أيَّ شيءٍ ممّا فعله. حاربَ القدّيسان يوحنّا الذهبيّ الفم وباسيليوس الكبير الهرطقات. هذا صحيحٌ تمامًا، وعليكم القيام بالمثل. ولكن ضارِعوا أوّلًا الأتعاب النُّسكيّة الّتي بذلَها هذان القدّيسان في كهوف البنطس، لتصبحوا ما أصبحا عليه. إنّنا نحاول أن نفعل ما فعل القدّيسون مِن دون أن نكون قد صِرنا ما صاروا عليه.

والخطأ الثاني الّذي نقعُ فيه هو التالي. لا يختار الشيطان أشخاصًا عديمي الأهمّيّة ليقوموا بعمله، بل يختار أناسًا يتمتّعون بالعديد من المواهب، بل وأناسًا من داخل الكنيسة. تمتّع آريوس بمواهب عدّة. كان شديدَ التقوى، وكان موسيقيًّا، فألَّفَ أغانٍ موزونةً دسَّ فيها كلمات هرطقته، مثلًا دسّها في أغاني المطحنة (Epimilia). ففي تلك الأيّام، كانت النساء يطحنَّ القمحَ بوضع حجرٍ مستديرٍ في داخل وعاءٍ حجريّ مجوَّفٍ مستدير. كنَّ يضعنَ القمح، ويُدرنَ الحجر بحركةٍ إيقاعيّةٍ وهنَّ يُغنّين تلك الأغاني. فركّب آريوس هرطقاته على هذه الألحان.

لا يمكننا مجاراةُ هؤلاء، مجاراة الآريوسيّين عبر العصور، لأنّهم أشخاصٌ موهوبون ويتمتّعون بقدرٍ هائلٍ من المعرفة. ولهذا السبب تحديدًا تكون ردودُ أفعال الكثير من المسيحيّين الأرثوذكسيّين المعاصرين مثيرةً للسُّخرية. يحاربون أناسًا واسعي المعرفة، بينما هم أنفسهم لا يعلمون ما الّذي يقولونه. ولكي يدعموا ما يقولونه، يكرّرون أيَّ شيءٍ قد سمعوه في موضعٍ آخر، مُحرّفين إيّاه ليتلاءم مع أغراضهم ورغباتهم. "فلان قال كذا وكذا"... يقومون بنسخ الكلام ولصقه. "فلان قال كذا وكذا، لذا علينا اتّباعه أيضًا"، هذه حججٌ مثيرةٌ للسُّخرية لأنَّ مَن يقولونها هم أناسٌ تافهون.

لا تكفي النوايا الحسَنة. لسنا نملك المعرفة اللاهوتيّة التي امتلكها أولئك [الهراطقة]. فماذا علينا أن نفعل؟ كيف نحارب بدعةً أو أيّة ضلالةٍ نظنُّها موجودة - أو ربَّما هي موجودةٌ بالفعل؟

نحاربها بغاية البساطة. فلندع الّذين يتمتّعون منا بالمعرفة عن أولئك اللاهوتيّين الهراطقة الاستثنائيّين يواجهونهم بالحُجج اللاهوتيّة، كونهم هم أنفسهم لاهوتيّين. أمّا نحن الناس العاديّين –ملايين الناس العاديّين– فكيف نواجه بدعةً ما؟ عددٌ لا حصر له من القدّيسين يُقدّمون لنا مثالًا في ذلك. فلنبدأ بأمرٍ أساسيّ قاله القدّيس إسحق السريانيّ: "بكّتوا أولئك الّذين يعارضون تعاليمكم بقوّة فضائلكم وليس بمعقوليّة كلامكم". بكّتوا الآخرين بقوّة فضائلكم لا بحُججٍ تشبه حججَ المحامين. وهكذا نتعلّم الدرس.

هل نريد أن تُنقَذَ الأرثوذكسيّة؟ إذًا فلنصبح قدّيسين. مَن قال لكم إنّ قدّيسًا غير متعلّمٍ لا يتكلّم في المواضيع اللاهوتيّة ولا ينقذ الأرثوذكسيّة؟ إنّنا لا نُنقذ الأرثوذكسيّة بالكلام. لسنا أرثوذكسيّين بغرض أن نُنقذ الكنيسة، بل نحن في الكنيسة لكي نُخلّص أنفسنا، ولكي نصبح نحن أنفسنا أرثوذكسيّين. حين نصبح أرثوذكسيّين، حينها ستكون حياتنا بذاتها جوابًا صارخًا حتّى من دون أن نتكلّم.

يُعبّر القدّيسون عن ذلك على نحوٍ جميلٍ أيضًا: "الكلام من دون حياةٍ يكون أبكم. والحياة من دون كلامٍ تكون مثالًا صارخًا". حين لا تكون حياتكم منسجمةً مع ما تقولون، فإنَّ كلامكم لا يعبّر عن شيء. يكون كلامًا فارغًا. وأمّا حياتكم، فلو كانت من دون كلماتٍ، فهي تُمثّل مثالًا صارخًا. هل تريدون أمثلةً على ذلك؟

يوجد آلاف القدّيسين الذين ليسوا بلاهوتيّين عُظماء كالقدّيس أثناسيوس الكبير. آلاف القدّيسين، جميع القدّيسن المعاصرين، أحدث القدّيسين الّذين أعلنت الكنيسة قداستهم، نالوا جميعًا تعليمًا أساسيًّا فقط. ما معنى ذلك؟ أيعني ذلك أنّهم لا يدافعون عن الأرثوذكسيّة لمجرّد أنّهم لا يخرجون في احتجاجاتٍ في

الشوارع؟ ألأنّهم لا يتّهمون الكهنة والأساقفة والبطاركة؟ إنّهم يدافعون عن الأرثوذكسيّة بالفعل بمِثالهم وحياتهم.

هؤلاء قد أظهَروا ما هي الأرثوذكسيّة. وحين نُسأَلُ عن ماهيّة الأرثوذكسيّة، سنُشير إلى القدّيس باييسيوس. سنُشير إلى القدّيس يعقوب تساليكيس، وإلى المعادل للرسل أفرام أريزونا الفيلوثييتي. سنُشير إلى القدّيس بورفيريوس. هؤلاء لم يهاجموا أيّ كاهن. لم يهاجموا أيّ متروبوليت. لم يهاجموا أيّ بطريرك. لا يعني ذلك أنّهم كانوا موافقين على أخطائهم، بل كانوا يعرفون كيف يُصحّحونهم: بحياتهم، بالعمل الّذي خلّفوه وراءهم.

لهذا السبب تحديدًا، يُنقِذُ القدّيسون الأرثوذكسيّة حتّى بعد رقادهم. ماذا قال الربّ؟ "حتّى لو سكتُّ فالحجارة ستصرخ" (راجع لوقا 19: 40). حتّى لو لم أتكلّم، فالحجارة هي ستصرخ مُعلنةً أنّ ما قلتُه صحيح.

ألم يتكلّم الشيخ أفرام (أريزونا)؟ إنّ الأديار التي تفوق الثلاثين التي أسّسها وملأها بالرهبان والراهبات هي تصرخ. هو صامت لكنّ الحجارة تصرخ أنّ حقيقة الشيخ أفرام الفيلوثييتي (أريزونا)، وباييسيوس وبورفيريوس، هي الإيمان الأرثوذكسيّ.

إذًا، هل نريد إنقاذ الأرثوذكسيّة؟ فلنبدأ بأنفسنا، لا بالآخرين. الأمور في غاية البساطة، لذا دعونا لا ندّعي عدمَ الفهم. وكما يقول قدّيسُنا سيرافيم ساروف: "خلِّصْ نفسكَ، وآلاف الناس من حولك سيخلُصون". وبالتالي، إذا كنّا نحبُّ آلافَ الناس المحيطين بنا، فلنبدأ بأنفسنا.

"ربّي يسوع المسيح ارحمني". [فلنشارك] في أسرار الكنيسة، لا تنأوا بأنفسكم عن كهنتكم وأساقفتكم وكنيستكم. لا يوجد خلاصٌ خارج الكنيسة. أصلّي أن نفعل هذا جميعُنا - وأنا أوّلكم وأكثر واحدٍ بينكم. أرجوكم صلُّوا. فلتساندكُم العذراء مريم.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Elder Nikon of Mount Athos (2026), *The Only True Orthodox Manner of Opposing the Heresies that Imperil our Faith through the Centuries.* Transcribed from YouTube video.